

أ. د. عبد الله حبيب كاظم  
العراق – جامعة القادسية – كلية التربية  
قسم اللغة العربية

بنية الحكاية في رحلة ابن بطوطة  
- دراسة سردية -

#### الملخص :

تتضمن رحلة ابن بطوطة حكايات مختلفة ومتنوعة من حيث مادتها وعرضها، فأحياناً تكون خيالية، لاسيما عندما تكون مروية للرحالة، أو عندما ترتبط بالنبوءات والأحلام الإستباقية، وأحياناً تكون واقعية شاهدها الكاتب أثناء ترحاله، وفي هذا النوع من الحكايات يكون الرحالة أما شاهد عيان فيصور الحكاية ويرويها كما وقعت، أو يكون طرفاً مشاركاً في الحكاية.

إن سرد الحكاية في الرحلة يتخذ أكثر من أسلوب، فمرة يكون موجزاً وصفيًا، ومرة يكون موجزاً مكثفاً أكثر عناصر السرد، ومرة يكون طويلاً مفصلاً، وكانت معظم الحكايات مكتتزة مكتملة العناصر، من حيث الحدث والحوار والتسلسل الزمني مشحونة بالأفكار ومعبرة عن الانفعال.

لقد جاء اختيارنا لهذا الموضوع نتيجة لتنوع المبنى الحكائي في رحلة ابن بطوطة المعروفة بـ: (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) إذ أن كثرة الحكايات وتنوعها في مادتها، فضلاً عن المزاجية بين الحكايات الحقيقية الخيالية قد أعطى للنص ثراءً وتنوعاً، ومنح القارئ متعة فنية وكسر رتابة الخبر التاريخي في خلال اختلاط الواقعي بالخيالي.

إن الهدف من دراسة بنية الحكاية في رحلة ابن بطوطة، يتلخص بالآتي :

- الالتفات إلى كنوز التراث العربي وكشف النقاب عنها
- تطبيق آليات التحليل السردية على نص قديم
- الكشف عن تداخل الأجناس داخل الرحلة
- التأكيد على أن أدب الرحلة أرضاً خصبة، تصلح أن تطبق عليها مناهج وآليات حديثة ومعاصرة للكشف عما تضمنه من أجناس أدبية مختلفة.

#### مدخل :

أدب الرحلة من الأنواع الأدبية التي تحمل تنوعاً كبيراً، وثراءً واضحاً في مادتها الموضوعية والفنية، وهذا التنوع يدل على غنى كبيراً في موضوعات الرحلة، فالرحلة في مكوناتها، إنما تمثل تجارب غير محدودة في آفاقها، خاضها الرحالة في تجربته العلمية عبر إنتقاله في الزمان والمكان، في آفاق رحبة تنفتح على تجارب الشعوب في الحضارة وبناء الحياة، فتفرج تلك التجارب عن رؤية في الحياة وأنساقها المتنوعة في التاريخ والدين والإجتماع وعادات الشعوب وتقاليدها في الحياة، وهي في الوقت نفسه تعبر عن مدى قوة الصبر والتحمل والمعاناة التي يتحملها الرحالة في رحلته تلك، قد تبدأ بمشاق الرحلة والإنتقال المكاني، ولا تنتهي عند المعاناة المعنوية في اختلاف لغة التفاهم أو الخطاب وضرورة التأقلم مع الآخر في طباعه اليومية والحياتية.

وفي رحلة ابن بطوطة المسماة بـ: ((تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار))، كل ما يبحث عنه الإنسان المتطلع لمعرفة حياة الشعوب في القرن الثامن الهجري، لاسيما في بلاد المغرب التي انطلق منها ابن بطوطة وحتى أقاصي الصين حيث وصل.

والورقة البحثية هذه تحاول أن تفتح على جانب أدبي مهم ضمته رحلة ابن بطوطة، هو الحكاية التي تنوعت في هذا النص النثري، وإنما محاولتنا هي الوقوف على البنيات التي تضمنتها تلك الحكايات والاتجاهات التي تم من خلالها سرد الحكاية .

لقد تعددت هذه البنيات في سردها، فجاءت في منظور ينحو نحو العجائبي والغرائبي، أو في رؤية حلمية عبر الخيال الطيفي، أو أنها كانت تاريخية إجتماعية، ثم أنها كانت في كثير منها واقعية خاضها الرحالة نفسه .

إن البحث في بنية الحكاية، يؤكد على مبدأ التلازم الواضح بين الرحلة وبين الحكاية، فالرحلات تتضمن في بناءها العام الكثير من الحكايات في الأنساق التي ذكرناها آنفاً، وهي في الوقت نفسه تحمل في طياتها جانباً كبيراً من الرؤية الفنية، منظوراً إليها سردياً، وذلك ((لإرتقاء الوصف في كثير من أعمال الرحالة وبلوغه حداً كبيراً من الدقة، علاوة على عملية الأسلوب القصصي السلس والمشرق))<sup>(1)</sup>، وذلك ما منح كتابات الرحلة متعة عند قارئها، قربتها كثيراً من الفن الأدبي، بل هي في الأدب العربي محسوبة في ضمنه، على الرغم من أنها لا تخضع كلياً لمقاييس الفن الأدبي<sup>(2)</sup> لإختلاف الهدف بينهما .

فالرحلة طموح، ودعاء لحكمة غامضة، والرحالة شخص عظيم في هدفه الذي يسعى إلى تحقيقه، الذي شبه بالفجر الصادق، في بحثه عن الجوهر الغامض<sup>(3)</sup> .

### أولاً : الحكاية العجيبة والغريبة :

بنيت الحكايات في رحلة ابن بطوطة عبر تشكل سردي حول الظواهر التي صادفت صاحب الرحلة، إذ أن الأحداث التي مرَّ بها، هي التي أفرزت تلك الحكايات، ولربما أن من المصادفة العجيبة أن الحكايات التي تقع في باب العجيب والغريب هي التي تولف القسم الأكبر، أو القسم الأعلى شأناً من بين أنواع الحكاية الأخرى، وقد يعود ذلك إلى أن الحكاية المكونة للرحلة، أو مجموع الحكايات تنبني على أصل شفاهي، ثم أنها تتحول إلى مدونة كما هو الحال مع رحلة ابن بطوطة .

إذ من المعروف أن ابن بطوطة، دون رحلته بطلب من أبي عنان المريني سلطان فاس<sup>(4)</sup>، وقد ذكر ذلك كاتبه محمد بن جزي الكلبى في مقدمته إذ يقول : ((ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملني ما شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار، وعلمائها الأخيار، وأوليائها فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر، من كل غريبة أفاد باجتلائها، وعجيبه أطرف بانتحائها))<sup>(5)</sup> وبذلك فإن ((جلّ التدوينات الأدبية في مختلف الأنواع المسبوقة بالشغوي وآثاره، والحضور القوي للمتلقى المتشبع بالحس الحكائي لن تسلم من نفس الحكى والإخبار عبر النقاط اللحظات الماضية في مستويات مختلفة منقاطعة ومرفودة بتأطير الحس البطولي، ووسط ملتقى حافل بتقاطعات حيوية، فيها الثقافي والديني والتاريخي والجغرافي والسياسي))<sup>(6)</sup> .

وبذلك فالرحلة، توفر أرضاً خصبة للمتلقى والقارئ، فيها الممتع مما جاء فيه صاحب الرحلة في موضوعات قد تقترب من الخرافة .

أو أنها تسجل مغامرة في العجائبي والغرائبي، فهي بذلك تجمع بين أهوال الرحلة وما يتعرض إليه صاحبها من مشقة حقيقية، وبين متعة المشاهدة والإتصال بالأقوام الأخرى<sup>(7)</sup> .

من ذلك ما ذكره ابن بطوطة في حديثه عن الصين، إذ يقول : ((ولمّا كنت بصين كلان، سمعت أنّ بها شيخاً كبيراً قد أناف على مائتي سنة وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث، ولا يبأش النساء مع قوته التامة، وأنه ساكن في غار بخارجها يتعبّد فيه، فتوجهت إلى الغار فرأيت على بابيه، وهو نحيف شديد الحمرة عليه أثر العبادة ولألحية له، فسلمت عليه، فأمسك يدي وشمها وقال للترجمان : ((هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الأخر)) ثم قال لي : ((لقد رأيت عجباً : أتذكر قدمك الجزيرة التي فيها الكنيسة

والرَّجُل الذي كان بين الأصنام، وأعطاك عشرة دنانير من الذهب؟))، فقلت : ((نعم)) فقال : ((أنا هو))، فقبلت يده، وفكَّر ساعة ثم دخل الغار فلم يخرج إلينا، وكأنَّه ظهر منه الندم على ما تكلم به، فتجهمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده، ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بوالسَّت من الكاغد، فقال : ((هذه ضيافتكم فانصرفوا)) فقلنا له : ((ننتظر الرجل))، فقال : ((لو أقمتم عشر سنين لم تروه، فإنَّ عادته إذا أطلع أحداً على سرٍّ من أسرارهِ لا يراه بعده، ولا تحسب أنَّه غاب عنك بل هو حاضرٌ معك !!))، فعجبتُ من ذلك وانصرفت، فأعلمت القاضي وشيخ الإسلام وأوحد الدين السنجاري بقضيته، فقالوا : ((كذلك عادته مع من يأتي إليه من الغرباء، ولا يعلم أحدٌ ما ينتحله من الأديان، والذي ظننتموه أحد أصحابه هو هو))<sup>(8)</sup>.

تتبنى هذه الحكاية في محورها الأول على حب الإطلاع والاكتشاف من الراوي – صاحب الرحلة – فقد شدَّ السماع الأولي بهذا الشيخ لاكتشاف شخصيته، لاسيما أن التوصيف الأولي لهذه الشخصية يخرجها من نمطية أن تكون شخصية بشرية اعتيادية، فزمنها لا يماثل زمن الآخرين عمرياً، ولا تعيش يومها كالآخرين فهي تقترب من التركيب الأسطوري، ثم أنَّها متماهية زمنياً، تعيش في أكثر من مكان في الآن الواحد .

ثم يستمر ابن بطوطة في سرده لحكاية هذا الشيخ، لكنه في هذه المرة ينقل عن الآخرين تكويناً تاريخياً لها، من دون أن يتدخل برفض أو قبول لما ذكر عنها، أو يقف محلاً وناقداً لصفاتها، فيقول : ((وأخبروني أنَّه غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة، ثم قدم عليها منذ سنة، وكان السلاطين والأمراء الكبار يأتونه زائرين، فيعطيهم التحفَّ على أقدراهم، ويأتيه الفقراء كلَّ يوم فيعطي لكلِّ أحد على قدره، وليس في الغار الذي هو به ما يقع عليه البصر، وأنه يحدث عن السنين الماضية، ويذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقول : ((لو كنتُ معه لنصرته))<sup>(9)</sup>.

أن النص في وصف هذا الشيخ، يتحرك زمنياً في رؤية غرائبية وعجائبية، فكيف يعطي ويمنح، وهو لا يملك شيئاً أو على الأقل أن يلاحظ عنده في مغارته مما يمنحه سواء للفقراء أو الأمراء، والغريب أنَّه يتحدث بشأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) والمراحل التالية عليهم، مميزاً وناقداً، وكأنَّه العليم بأخبارهم على تباعد المكان والزمان .

ثم يختم حكايته بقوله : ((وحدثوني عنه بأمر كثيرة، وأخبرني أوحد الدين السنجاري، قال : ((دخلت عليه الغار فأخذ بيدي، فخيَّل لي أني في قصر عظيم، وأنه قاعدٌ فيه على سريرٍ فوق رأسه تاجٌ، وعن جانبيه الوصائف الحسان والفواكه تساقط في أنهار هنالك، وتخيلتُ أني أخذت تفاعحةً لأكلها، فإذا أنا بالغار وبين يديه وهو يضحك مني، وأصابني مرض شديد لازمني شهوراً فلم أعد إليه))، وأهل تلك البلاد يعتقدون أنَّه مسلم، لكن لم يره أحد يصلي، وأما الصيام فهو صائم أبداً، وقال لي القاضي : ((ذكرت له الصلاة في بعض الأيام، فقال لي : ((أتدري أنت ما أصنع ؟ إنَّ صلاتي غير صلاتك))، وأخباره جميعها غريبة))<sup>(10)</sup>.

إنَّ بنية الحكاية هنا تحيلنا على راي مشارك عليم بمجريات الأحداث، يأتي شاهداً ومصدقاً لمسار الحكيم مع غرائبيته، والراوي المشارك هنا يتمثل بالمجموع المخبر عن هذا الشيخ، وكذلك يتمثل بدور البطل في شخصية أوحد الدين السنجاري، فالحكي يتسم بـ ((عدد من الرواة، ويكون الأمر في شكله الأكثر بساطة، عندما يتناوب الأبطال أنفسهم على رواية الوقائع واحداً بعد الآخر .... إنَّ تعدد الرواة، يؤدي غالباً إلى تعدد وجهات النظر حول قصة واحدة))<sup>(11)</sup>.

وهذا ناتج عن تمركز الحكيم حول شخصية تستند إلى رؤية واقعية في الوجود، غير أنَّها حققت هاجساً يتسم بالفعل الروحي لوجود مستقبل يقنع أو هو ينحو نحو هذا التوجه الروحي، وهذا ما يبرر للشخصية اجتيازها حاجز المؤلف إلى الغريب العجيب .

ومن ذلك أيضاً، ما أورده ابن بطوطة في حكايته التي تتحدث في اليوم الثالث والأربعين في رحلته من الصين إلى جاوه، إذ يقول : ((ولما كان في اليوم الثالث والأربعين، ظهر لنا بعد طلوع الفجر

جبلٌ في البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلاً، والرياح تحملنا إلى صوبه، فعجب البحرية، وقالوا : ((لسنا بقرب من البر ولا يعهد في البحر جبلٌ، وإن اضطرتنا الريح إليه هلكننا))، فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص وجددوا التوبة، وابتهلنا إلى الله بالدعاء، وتوسلنا بنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونذر التجار الصدقات الكثيرة وكتبتها لهم في زمام بخطي، وسكنت الريح بعض سكون، ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد أرتفع في الهواء، وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر، فعجبنا من ذلك، ورأيت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضاً، فقلت : ((ما شأنكم)) فقالوا : ((إن الذي تخيلناه جبلاً هو الرخ، وإن رأنا أهلكننا!))، وبيننا وبينه إذ ذاك أقل من عشرة أميال، ثم أن الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته))<sup>(12)</sup>.

إن من الأمور المهمة التي يوردها الرحالة، هي ربط المؤلف بغير اللامألوف والخروج من الطبيعي إلى غير الطبيعي، فهو يهدف إلى اقتناص أكبر قدر ممكن من مساحة شد المتلقي ودفعه دفعا إلى الاستمتاع بما يقص عليه من مشاهدات .

والحكاية السابقة ((حكاية الرخ)) لا تخرج عن هذا، فهي فضلاً عن بنيتها السردية التي تقترب من التكامل في جزئيات الزمان والمكان والحدود فيهما لا متناهية، كذلك الأحداث والشخصيات – البحارة والتجار والشخصية الرئيسية متمثلة بالراوي صاحب الرحلة نفسه – فهي تحيل إلى مألوف يتمظهر بالخوف من المجهول واللجوء إلى الدعاء، وغير المؤلف أن يكتب لهم ما أقروه على أنفسهم – التجار – من صدقات، ويمتد إلى اسطرة طائر الرخ، عبر هذا المشهد المتعظم، ثم النهاية التي لا تتساق مع ضخامة الحدث، إن كل ذلك يحيل إلى فكرة مبتغاة تجمع بين الغريب والعجيب في الآن نفسه .

## ثانياً – الحكاية التاريخية والاجتماعية :

تشكل العلامات التاريخية وما يتصل بها من أحداث هي نتاج التفاعل الاجتماعي اليومي، وحياة الشعوب رؤية متكاملة في نص الرحلة، فصاحب الرحلة، إنما يحاول جاهداً التمسك بالأحداث التاريخية، التي عنت له، أو أنه سمع بها عبر انتقاله زماناً ومكاناً وذلك كله يتصل بمجموعات تلك الأحداث، التي حاول الرحالة أن يتألف معها، أو أنه اقترب منها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإن كانت عقبات تحول بينه وبين مبتغاه، منها اللغة والدين ومبدأ القبول بالآخر، أو التنحي عنه جانباً، إن لم تظهر العدائية أحياناً .

ورحلة ابن بطوطة في كثير من حكاياتها، إنما تسرد أحداثاً تاريخية موجزة أو مفصلة عن المجتمعات التي مرَّ بها، أو استقر عندها زماناً ليس بالقليل، وهذه الوقائع والأحداث، تصور بشكل واضح ما يمكن أن نسماه تعبير عن صورة الوضع الحضاري لتلك الشعوب، لأنها تقدم واقعهم السلوكي والأخلاقي والثقافي، وما تظهره فاعلية الحياة اليومية لديهم .

من ذلك، ما أورده ابن بطوطة في حكايته في موضوعات عدّة تجمع بين التاريخ القديم والتاريخ الإسلامي، وهي تضم إلى جانب الأحداث التاريخية، فمما رواه ما يتعلق بالأهرامات المصرية، إذ يقول : ((الأهرام والبرابي من العجائب المذكورة على مدّ الدهور، وللناس فيها كلام كثير، وخوض في شأنها، وأولية بنائها .... ومما يذكر في شأنها أن ملكاً من ملوك مصر، قبل الطوفان رأى رؤيا هالته، وأوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربي من النيل لتكون مستودعاً للعلوم ولجنث الملوك، وأنه سأل المنجمين هل يفتح منها موضع ؟ فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالي، وعينوا له الموضع، الذي تفتح منه، ومبلغ الإنفاق في فتحه، فأمر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه أنه ينفق في فتحه، وأشدت في البناء فأتته في ستين سنة وكتب عليها : ((بنينا هذه الأهرام في ستين سنة، فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة، فإن الهدم أيسر من البناء))، فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها، فأشار عليه بعض مشايخ مصر، أن لا يفعل، فلجَّ في ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي فكانوا يوقدون عليها النار، ثم

يرشونها بالخل، ويرمونها بالمنجنيق، حتى فتحت الثلثة التي بها إلى اليوم، ووجدوا بإزاء النفق مالاَ أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب فوجدهما سواء، فطال عجبه، ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعاً))<sup>(13)</sup>.

فالملاحظ على النص أنه يجمع على وفق تفصيل تاريخي رؤية تاريخية، ترتبط بما هو اجتماعي يصل القديم الفرعوني بالحديث الإسلامي، وهو لا يخلو من المفارقة في ذكر رأي الفرعون، فيما يتعلق بالإنفاق على هدم الأهرام، وما تحقق في تأريخ المأمون عند محاولة الهدم، التي رفضها المجتمع المصري ممثلاً بمشايخه لإعتبارات تاريخية وإجتماعية، وبذلك فإن الرحلة تنبني : ((على تقديم معرفة متنوعة مباشرة من المعلومات الأدبية والتاريخية والجغرافية والإثنوغرافية، وغير مباشرة يتشكل من آراء ومواقف الراوي عن ذاته وعن الآخرين ...))<sup>(14)</sup>.

ومما ذكره ابن بطوطة في الأحوال الاجتماعية للشعوب التي ارتحل إليها كثير منها ما وصف به الطرائق الاجتماعية التي تتحدث في أحوال المرأة، فهو يصف النساء في جزيرة ذبيبة المهل (المالديف)، إذ يقول : ((ونسأوها لا يغطين رؤوسهن ولا سلطانتهم تغطي رأسها، ويمشطن شعورهن ويجمعنها إلى جهة واحدة ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى أسفل، وسائر أجسادهن مكشوفة، وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها .

ولقد جهدت لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة وأمرهن باللباس، فلم أستطع ذلك، فكنت لا تدخل إليَّ منهن امرأة في خصومة إلا مستترة الجسد، وما عدا ذلك لم تكن لي عليهن قدرة ...))<sup>(15)</sup>.

فالرحالة هنا يزواج بين اليومي الاعتيادي في حرية الملبس، وما يجب أن يكون على وفق اللباس الإسلامي للمرأة، أو ما يتماشى مع الذوق في الأقل، غير أن ما هو تقليد واعتبار للمرأة، ويمثل حرية امتلاكها، يكون له من الوثاقة ما يجعله ثابتاً مقبولاً في بنية المجتمع .

ثم يواصل الحديث في نساء هذه الجزر و((المالديف))، متناولاً سارداً وواصفاً حال الزواج للنساء، فيقول : ((والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء، .... وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء، فإذا أرادوا السفر طلقوهن ... وهن لا يخرجن عن بلادهن أبداً، ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن))<sup>(16)</sup>.

لقد توجه الرحالة العرب المسلمون، صوب الأمور الاجتماعية توجهها شديداً، ولربما أن عنايتهم وفي طليعتهم ابن بطوطة بهذا الجانب، فاقت العناية بالجوانب الأخرى، وقد كان ابن بطوطة خاصة شديد العناية بالمرأة وجمالها وما يتصل بهما<sup>(17)</sup>، من ذلك الوصف الذي أورده عبر مشاهدته للنساء، لاسيما الأميرات منهن في (ماجر) في بلاد الأتراك، إذ يقول : ((ورأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم، وهن أعلى شأناً من الرجال، فأما نساء الأمراء فكانت أول رؤيتي لهن عند خروجي من القرم رويق الخاتون زوجة الأمير سلطية في عربة لها، وكلها مجللة بالملف الأزرق الطيب وطيقان البيت مفتوحة، وأبوابه وبين يديها أربع جوار فانتات الحسن بديعات اللباس، وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها))<sup>(18)</sup>.

ويبدو أن صورة المرأة هذه، ومكانتها لا تقل شأناً عند النساء الأخريات في أواسط المجتمع، فهي ليست خاصة بالأميرات، بل أن الأخريات يحظن بالمكانة نفسها في ذلك المجتمع بحسب ما شاهده ابن بطوطة وسرده لنا وصفاً، بقوله : ((وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن، وإحداهن تكون في العربية والخيل تجرها، وبين يديها الثلاث والأربع من الجواري يرفعن أذيالها، وعلى رأسها البغطاق، وهي بادية الوجهه لأن نساء الأتراك لا يحتجن، وتأتي إحداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن، فتدبعه من الناس بالسَّلْع العطرية، وربما كان مع المرأة منهن زوجها، فيظنه من يراها بعض خدامها، ولا يكون عليه من الثياب إلا فروة من جلد الغنم، وفي رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها الكلا))<sup>(19)</sup>.

إن حركية السرد الوصفية لابن بطوطة كانت دقيقة، معنية بكل ما شاهده في تلك البيئة وجغرافيتها، مولياً عناية فائقة لحركة المجتمع فيها، فهو لا يصور المرأة فقط، بل يستدل على شؤونها، وموقعها من مجتمعها أميرة أو غير ذلك .

### ثالثاً : الحكاية الحلمية :

تشغل الحكاية الحلمية حيزاً كبيراً في رحلة ابن بطوطة، وتنبني هذه الحكايات على أحلام المنامات عند الرحالة، فيقصها عبر رؤية سيرية سردية قد تكون خاصة به، أو أنها تمثل ما قصه عليه الآخرون من الشعوب التي مرَّ بها، وهي تتراوح بين ما يمكن أن يقرأ على وفق أرضية الواقع، أو أنَّها في أحايين كثيرة تدخل في أبواب من الغريب والعجيب الذي لا حدود له، لقد ((امتدت فضاءات الرحلة على مساحة واسعة من بنية السرد ... محققة بذلك وظائف خاصة تنتمي للفكرة العامة التي يقترحها النص، بل إن توليد منامات مشحونة بفعل السفر تعمل في بعض النصوص على تحقيق المنام الرئيس الذي يعرضه الراوي في ابتداء النص، فكأننا بإزاء وحدات حكائية مجتزأة تتضمن لبعضها مشكلة بذلك الإطار الفاعل المحتضن للمشهد الحكائي الرئيس والمحقق له))<sup>(20)</sup> .

وهذا ما يؤكد النص الحكائي الحلمية المنامي الذي يعد استشرافاً مستقبلياً لتفاصيل رحلة تالية – رحلة ابن بطوطة – يقوم بها الرحالة إلى إرجاء المعمورة .

يأتي ذلك في سياق سرده لرحلته من مدينة الإسكندرية إلى مدينة المحلة الكبرى، فيكون نصه الإستشراقي في مدينة – فوا – حيث يقول : (( رأيت ليلتي تلك، وأنا نائم، بسطح الزاوية، كأني على جناح طائر عظيم، يطير بي في سمت القبلة، يتيامن ثم يشرق، ثم يذهب في ناحية الجنوب، ثم يبعث الطيران في ناحية الشرق، وينزل في أرض مظلمة خضراء، ويتركني بها))<sup>(21)</sup> .

ويعزز ابن بطوطة هذا الإستشراق عبر رؤية تفسيرية لشيخ الزاوية التي قصدها، الشيخ أبي عبد الله المرشدي فعندما قصَّ حكاية المنام على هذا الشيخ، يأتي تفسيره للرؤيا على النحو الآتي : ((سوف تحج وتزور النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – وتجوّل في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك، وتبقى بها مدة طويلة وستلقى بها دلشاه الهندي، ويخلصك من شدة تقع فيها))<sup>(22)</sup> .

إنَّ هذه الحكاية الحلمية تقدم استباقاً زمنياً واضحاً، لما يأتي في رحلة ابن بطوطة الطويلة، وكأنَّها استشراف استعدادي تحفيزي للقيام بالرحلة ف : ((جلَّ المنامات كانت محفزة للرحلة، ولم تكن مخلقة لها في إطار حكاية الحلم، بمعنى أنَّ المنام يبني على حدث يدعو لارتياح الأفق الذي يتم خارج فضاء المنام، وهنا قد يخلق المنام حدثاً رئيساً يكون المسير الشرعي لأحداث العمل برمته والداعي لإرتياح بقاع عديدة))<sup>(23)</sup> .

وتواصل الحدث الحكائي لذلك المنام، يتواصل عبر رحلة طويلة، حتى يلتقي صاحب الرحلة، بدلشاد تلك الشخصية التي ذكرها الشيخ المرشدي في تعبيره لرؤيا ابن بطوطة، وكيف أنَّه يخلصه من شدة يقع فيها، فيسرد ذلك بقوله : ((وفكرت في الرجل الذي حملني على عنقه، فتذكرت ما أخبرني به وليُّ الله تعالى أبو عبد الله المرشدي حسبما ذكرناه في السفر الأول، إذ قال لي : ((ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخي دلشاد، ويخلصك من شدة تقع فيها))، وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه فقال : ((القلب الفارج)) وتفسيره بالفارسية ((دلشاد))، فعلمت أنه هو الذي أخبرني بلاقائه، وأنَّه من الأولياء، ولم يحصل لي من صحبتته إلا المقدار الذي ذكرت))<sup>(24)</sup> .

إن تأكيد ابن بطوطة على أن المرشدي من الأولياء، ما هو إلا التزام بما يتعلق بشرط قص الحلم وحكايته على عالم ناضج، وليس جاهل أو عدو<sup>(25)</sup> .

ومما حكاه حلماً عن غيره، ما أورده ابن بطوطة في حكايته عن علي بن حجر، عندما أقاما سوية في مدينة الرسول، أنه رأى في منامه قائلاً يقول له : ((أسمع مني وأحفظ عني :

هنيئاً لكم يا زائرين ضريحه      أمنتكم به يوم المعاد من الرجس  
وصلتم إلى قبر الحبيب بطيبة      فطوبى لمن يضحى بطية ويمسي)).

وجاور هذا الرَّجُل بعد صحبه بالمدينة، ثم رحل إلى مدينة دهلي قاعدة بلاد الهند في سنة ثلاث وأربعين، فنزل في جوارِي، وذكرت حكاية رؤياه بين يدي ملك الهند، فأمر بإحضاره، فحضر بين يديه وحكى له ذلك، فأعجبه واستحسنه، وقال له كلاماً جميلاً بالفارسية، وأمر بإنزاله وأعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب، ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف، وأعطاه فرساً محلي السرج واللجام وخلعة وعين له مرتباً في كل يوم))<sup>(26)</sup>.

وبهذا فإن ((الحالم يحقق في أحلامه زمناً عجائبياً يجب أن يتلقاه المتلقي بالتصديق، وقد يتماهى في بعض الأحيان معه))<sup>(27)</sup>.

إن التحول في النص المتقدم، يتحدد بالغيبي المنامي، وما ينتظر منه، عبر ارتباطه بالمقدس من خيرات، يكون حصولها أو تحققها عبر انتقال زمني مكاني إلى أرض الهند.

#### رابعاً : الحكاية الواقعية :

في رحلة ابن بطوطة، تأخذ الرواية الواقعية، حيزها الواضح في تشكل البنية الأساسية لحكايات الرحلة، وتمثل الحكاية الواقعية، المشاهدات الحقيقية التي عايشها ابن بطوطة في أسفاره، وهذه الواقعية إنما ترصد حركية الحياة وواقعيتها في الأصقاع الجغرافية التي مرَّ بها الرحالة .

والواقعي المشاهد من الراوي - الرحالة - قد يبدو في بعض الأحيان غامضاً، أو أنه يتجه صوب الخيال، أكثر منه صوب الواقع، وسبب ذلك، إنما يمتد إلى إختلاف الناس في طبائعهم وتقاليدهم وعاداتهم ومعتقداتهم، حتى يخيل إلى قارئ النصوص هذه المشاهدات، أنها ليست بواقعية، لفرط التباعد والغرابة في إتيانها من الأقوام التي زارها الرحالة، فبدا الخلاف عميقاً بين واقعيتها وابتعادها في الخيال .

فمن الحكايات الواقعية، حكاية مراقبة وارتقاب حلول شهر رمضان، وتوقع ظهور الهلال ومشاهدته، وذلك في مدينة ((أبيار)) غير أن غير الواقعي أن يخرج جميع من في مدينة (أبيار) لمشاهدة رؤية الهلال على وفق طقوس معينة، ولا يعودون إلا بعد حلول المغرب، حاملين الشموع والمشاعل، إذ يقول : ((وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان، وعادتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان .... فإذا تكاملوا هنالك ركب القاضي، وركب من معه أجمعين وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم ... ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب، وبين أيديهم الشموع والمشاعل والفوانيس ... هكذا فعلهم في كل سنة))<sup>(28)</sup>.

إنَّ النص هنا، إنما يعبر في بنيته عن رؤية تتجه صوب معتقد إيماني وطقس ديني إسلامي، يتصل إتصلاً مباشراً بحلول شهر رمضان المقدس، شهر الصوم، وحركية السرد هنا إنما تؤكد على التلاحم وتقوية الأواصر بين أبناء المجتمع الإسلامي، وبذلك فإن عناصرها المختلفة تسهم في إشاعة أجواء التآلف والاطمئنان والمتعة<sup>(29)</sup>، وهذا ما أكد عليه الرحالة .

ومن الواقعي، الذي يتجه صوب الخيال، ويخرج عن الموضوعية والمصدقية، ما حكاه عن مشاهداته في (جاوه)، وهو كثير غير أن أكثره واقعية وغرابة، ما يتعلق بالحكاية التي تفيد بحب الناس للسلطان حدَّ الموت، تعبيراً عن حبهم له .

من ذلك ما قصه حكاية مشاهدة واقعية بقوله : ((ورأيت في مجلس هذا السلطان رجلاً بيده سكين شبه سكين المُسَفَّر قد وضعه على رقبة نفسه، وتكلم بكلام كثير لم أفهمه، ثمَّ أمسك السكين بيديه معاً وقطع عنق نفسه، فوق رأسه لحدّة السكين وشدّة إمساكه بالأرض، فعجبتُ من شأنه، وقال لي السلطان : ((أيفعل أحد هذا عندكم؟)) فقلت له : ((ما رأيت هذا قط)) فضحك وقال : ((هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبتنا))، وأمر به فرفع وأحرق، وخرج لإحراقه النواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا، وأجرى الرزق الواسع على أولاده وأهله وإخوانه وعُظُموا لأجل فعله))<sup>(30)</sup> .

ربّما أنّ غرابة هذه الحكاية مع واقعتها هي التي جعلت ابن خلدون ينكر رحلة ابن بطوطة، لأن كثيراً مما جاء فيها لاسيما ما يتعلق بأخبار الهند والصين عصي على التصديق<sup>(31)</sup> .

ومن مصادفات الحكايات الواقعية، ما تعرض له ابن بطوطة وأصحابه في رحلتهم في بلاد الترك، عند مسيرهم من ((كينوك إلى بورلو)) إذ أدى اختلاف الدلالة في المفردة اللغوية إلى نوع من المفارقة الساخرة، إذ يقول : ((وكان من غريب ما اتفق لنا، أنني بعثت أحد الخدام ليشتري التبن للدواب، وبعثت أحدهم يشتري السمن، فأتى أحدهم بالتبن والآخر دون شيء، وهو يضحك، فسألناه عن سبب ضحكه، فقال : ((أنا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن، فأشار إلينا بالوقوف، وكلم والده، فدفعنا إليه الدراهم، فأبطأ ساعة وأتى بالتبن، فأخذناه منه، وقلنا له : إنا نريد السمن، فقال : هذا السمن))، وأبرز الغيب لنا أنهم يقولون للتبن ((سمن)) بلسان الترك، أما السمن، يسمى عندهم ((رغان))<sup>(32)</sup> .

لقد قادت هذه المفارقة في الدلالة اللغوية على الأشياء، ابن بطوطة وأصحابه إلى أن يتخذوا لهم مترجماً من العرب يدرك اللغتين .

مما تقدم يتضح أن البنية السردية لحكايات رحلة ابن بطوطة ((تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)) تقدم لقارئها نصاً متكاملأ في وجهته الأدبية المعرفية، ففيه معالجة واضحة للشخصيات وأفعالها وما تقوم به من أحداث في حركية زمانية وحكاية، تقدم عالماً يمجج بالكثير المعبر عن الشعوب وحضارتها وما وصلت إليه من معرفة علمية واقعية، أو أنّها تظهر الجانب الآخر في أسطورة الأحداث والشخصيات أو أنّه يتصل باليومي الاعتيادي المعبر عن لحظة تأمل جميلة للحياة .

## هوامش البحث

- (1) أدب الرحلات : 17 .
- (2) ينظر، م . ن : 17 ، وينظر : الرحلة في الأدب العربي : 9 .
- (3) ينظر : محاورات مع النثر العربي : 201 .
- (4) ينظر : أدب الرحلة : 52 .
- (5) رحلة ابن بطوطة، مقدمة ابن جزري : 15 – 16 .
- (6) الرحلة في الأدب العربي : 22 .
- (7) ينظر : السرد العربي القديم – الأنواع والوظائف والبنىات : 85 .
- (8) رحلة ابن بطوطة : 2 / 228 .
- (9) م . ن : 2 / 228 .
- (10) م . ن : 2 / 228 .
- (11) بنية النص السردية : 49 .
- (12) رحلة ابن بطوطة : 2 / 242 .
- (13) م . ن : 1 / 42 – 43 .
- (14) الرحلة في الأدب العربي : 272 .



- (15) رحلة ابن بطوطة : 177 / 2 .  
 (16) م . ن : 178 / 2 .  
 (17) ينظر : أدب الرحلة : 120 .  
 (18) رحلة ابن بطوطة : 301 / 1 .  
 (19) م . ن : 301 / 1 .  
 (20) المنامات في الموروث الحكائي العربي : 168 .  
 (21) رحلة ابن بطوطة : 33 / 1 .  
 (22) م . ن : 33 / 1 .  
 (23) المنامات في الموروث الحكائي العربي : 168 .  
 (24) رحلة ابن بطوطة : 145 / 2 .  
 (25) ينظر : الرحلة في الأدب العربي : 413 .  
 (26) رحلة ابن بطوطة : 117 / 1 .  
 (27) السرد العربي القديم، الأنساق الثقافية وإشكالية التأويل : 72 .  
 (28) رحلة ابن بطوطة : 34 / 1 .  
 (29) ينظر : السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف والبنىات : 152 .  
 (30) رحلة ابن بطوطة : 219 / 2 – 220 .  
 (31) ينظر : السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف والبنىات : 153 .  
 (32) رحلة ابن بطوطة : 282 / 1 .

#### المصادر

- 1- أدب الرحلات، د. حسين محمد فهميم، عالم المعرفة، الكويت، 1989م .
- 2- أدب الرحلة، الدكتور حسين نصار، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، مصر، القاهرة، 1991م .
- 3- بنية النص السردية، من منظور النقد الأدبي، د. حميد لحداني، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2000م .
- 4- السرد العربي القديم – الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل، د. ضياء الكعبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005م .
- 5- رحلة ابن بطوطة – المسماة بتحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة (703 – 773 هـ) أعتنى به وراجعته د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2010م .
- 6- الرحلة في الأدب العربي التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، رؤية للنشر والتوزيع، 2006م .
- 7- السرد العربي القديم – الأنواع والوظائف والبنىات، إبراهيم صحراوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008م .
- 8- محاورات مع النثر العربي، د. مصطفى ناصف، عالم المعرفة، الكويت، 1997م .
- 9- المنامات في الموروث الحكائي العربي – دراسة في النص الثقافي والبنية السردية، د. رعد الناصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2008م .